قصص

مهنّد صلاحات

مهنّد صلاحات

كاتب ومخرج، يعمل في مجال الإعلام والدراما والأفلام الوثائقيّة. من إصداراته: **إلى أربع نساء** (قصص)، **وحيدان في الانتظار** (قصص). وهو عضو رابطة الكتّاب الأردنيين.

١ ـ بالنسبة إلي

ثلاثُ جثثٍ معلومة الهويّة، لكنها مشوّهة، على قارعة الطريق، ملقاة كأنها أكياسُ قمامة. لم تُثر أحدًا من المارّةِ كي ينظر إليها؛ فهم يبحثون عن جدارٍ يسيرون إلى جانبه بسلامٍ ضمن قاعدة «الحيط الحيط ويا رب السترة.»

القاتلُ ذو سطوة، إلى جانب أنه رجلُ أمنٍ يعرفه الجميعُ، ويعرف الجميعُ أيضًا أنّ القتل في تلك المدينة قد صار عادةً يوميّةً مثلَ الصلاة والأكل والنميمة.

الموت في المدينة لا يتمّ استيرادُه لأنه مُنتَجٌ وطنيّ بامتياز، ويتمّ عادةً بحجّة «حماية الوطن.» وهو يُعبّأ بالصناديق، ورائحةُ الموت تُسيطر على هواء المدينة فتتسلّل إلى كلّ أنفٍ مهما كان مصابًا بالزكام. وبالرغم من ذلك، فإنهم يقيمون «محكمةً» كلّما وَجدوا جثةً ملقاةً على قارعة الطريق ويستجوبون القاتل.

وعلى ذمّة القاتل، فإنّ القتيل كانَ إرهابيّاً يحمل في طيّات كتابٍ كان يقرأه في حديقةٍ عامّةٍ ما يشبه الخططَ العسكريّة التي تسربتْ إليه من دولةٍ أجنبيّةٍ معاديةٍ بهدف إسقاط النظام، وخبّأ في ثوب طفلته قنبلةً بحجم رضاعة الحليب الخاصّة بها، ودَسّ في عيون زوجته جهازَ تسجيل.

وبحسب ضابط الأمن الذي تولّى التحقيق، فإنّه لم يتمّ العثورُ على أيّ خططٍ عسكريّةٍ بين طيّات الكتاب المزّق، لكنه أبدى توجّسَه من الكلام المكتوب فيه.

ولم يتمّ العثورُ على أيّ سلاح أبيضَ قرب جثّة القتيل، ولا على قنبلةٍ في ثوب طفلته، ولا على أيّ نوع من أجهزة التّجسّس والتسجيل في عيون زوجته، فاضطرّ رجلُ الأمن الجنائيّ إلى فقء عينيها بحثًا عن أدلّةٍ تدحض رواية القاتل. وأضاف ضابطُ الأمن: «لكنّ هذا لا يبرّئ القتيل من إثم النيّة المسبّقة، فكلامُ الكتاب مريب.»

وعلى ذمّة القاضي، فإنّ القاتل كان خائفًا من الفكرة ـ وهذا ما يجعل الجريمة دفاعًا عن النفس، فالفكرة أشدّ فتكًا من القنبلة.

لكنّ القاضي لم يحدّد لونَ الفكرة وشكلَها وكميّتها، بل اكتفى برفع الجلسة بعد تبرئة القاتل.

أما بالنسبة إليّ، فالقاتل ضحيّة البشريّة التي تَخلّت عن الإنسانيّة ووقفتْ إلى جانبه تبرّر له الجريمةَ لتقْنعه بأنه بطل.

إنه ضحيّة الإنسان الذي خلق الجريمةَ، ومن ثم صار يبحث كيف يمكن أن يصنع رجالَ أمنٍ ليتخلّص منها.

ترى مَن جاء قبل الآخر:

الجريمةُ أمْ رجلُ الأمن؟

الخوفُ أمْ رجلُ الأمن؟
ومن الذي فرّ من الآخر:
الأمنُ أمْ رجل الأمن؟
لا يشبه اللهُ أبدًا ذلك الإلهَ الذي يصلّي له رجالُ الأمن والمخبرون، ويتحدّث عنه رجالُ الدين والمتديّنون.

٢ ـ عن موت اليمامات

وقفت امرأةٌ قرب علبة ألوان على شرفتها، وقالت للربيع:
ـ انتظر عودة حبيبي. لا تُسقط بقيّة أوراق الشجر، لا تجعلِ الزهورَ تَذبل، علّهُ يصنعُ لي عقدًا من النرجس البريّ من الجبل.
مضى الربيع دون أن ينتظر أحدًا، ونسجت المرأةُ لنفسها عِقدًا من الأمل.
كلّ اليمامات اللواتي مررن بشبّاكها وقفن ونُحْنَ على رجلٍ فقدتهُ، أو على ذَكَر حَمَام. لم يعد من هجرةٍ مفاجئة، ولم تنتظر عودته، لكنها بقيتْ كلّ عام تجدلُ شعرها كصبيّة في السادسة عشرة من العمر، وتصنعُ لنفسها في الربيع عِقدًا من النرجس البريّ، وتُغنّي وحدها:
«لو كنتَ الآن معي، لنسجنا لليمامات أثوابًا بيضاء، وللشجر أثوابًا خضراء، ولرسمنا على البحر في هذا الليل شمسًا صفراء. فقط لو كنتَ الآن معي، لأعدنا رسم وجهِ هذه الحياة.»
كبرتْ يماماتُ الشبّاك، وهرم صغارُها أيضًا. والمرأة التي قالت للربيع يومًا أن ينتظر حبيبها بقيتْ صبيّةً في السادسة عشرة تُجدلُ شعرها كلّ صباح، وتغنّي وحدها، وتصنع لنفسها عقودًا من النرجس، وتنتظر رجلاً لم يزرها يومًا، ولا احتسى قهوتها، ولا دفّأتْ كفّاها وجنتيه، ولا يديها يداه.
امرأةٌ كانت تشبه الصباحَ. كانت تَسمعُ صوتَه يغنّي لها كلّما مرّت من بين شقوق الشبّاك ريحٌ، أو راقَصَ النسيمُ أوراقَ الشجر في بدايات الشتاء.
أما اليمامات فكنّ يمارسن البكاء على ذكورٍ رحلوا، ونذرن ألاّ يرتبطن بآخرين. كذلك فعلت المرأةُ المُنتَظِرة.
قالت لصورةٍ معلّقةٍ على الجدار، كأنها كانت صورته: «لا زلتَ تشبه نفسكَ منذ عرفتُك قبل أعوام.»
تأمّلت الصورةَ كثيرًا، ومضت إلى عاداتها اليوميّة: تجدلُ شَعرَها، وتصنع عقودًا من النرجس. ولأنّ الغرفة كانت معتمةً، فإنها لم ترَ سوى انبعاث الضوء من عينيه في تلك اللوحة.
عادت لتقرأ رسالته الأخيرة. عاودت القراءة من رأس الصفحة، حيث وضعتْ إشارةً من حيث انتهت. وكلّما قرأتْ سطرًا توقّفتْ وتأمّلت السقفَ الأبيض، وبدأتْ ترسم صورًا في مخيّلتها.
بعد وقت من القراءة، وضعتْ جانبًا رواية **الحبّ في زمن الكوليرا** لماركيز، ومضت نحو النافذة تبحث خلف زجاجها عن البحر الذي قال لها إنه سيأتي منه بالقارب إليها، ليحملها ويمضيا معًا إلى حيث لا يدريان.
البحر وحده سيعرف أين يأخذهما؛ فقد قرّرا أن يُسلما أمرَهما إليه، ويجعلاه البوصلة.
المرأةُ التي صنعتْ لنفسها من النرجسِ عِقدًا، ووقفتْ قرب النافذة تنتظرهُ أن يعود من البحر، لم تَكتب له يومًا حرفًا. لكنها كانت واثقة بأنه يقرأ كلّ رسائلها التي لم تكتبها.
لم تُفكّر في أن تكتب له على رملِ البحرِ ولو جملةً يأتي في بدء الليل مدُّ الموج ليسرق حروفَها؛ فهي أصلاً لم تعرف البحر، ولم يكن قريبًا منها كما تخيّلتْ، وشبّاكُ بيتها الذي كانت تقف إلى جانبه كان يُطلّ على السوق. ولئن جاء الذي لا تعرف صوته ولا شكله، فستطغى على نداءاته لها أصواتُ الباعة الثابتين والمتجولين والزبائن واللصوص، وصفّاراتُ سيّارات الشرطة والإسعاف.
فقط اعتادت الوقوف أمام لوحة لوجهه، تتأمّل ملامح وجهٍ أسودَ لا تعرفه، ولا ترى منه سوى بريق عينين وظلٍّ أسود لإنسان يحيط بذلك البريق.
تسير بخطاها الناعمة نحو الشرفة تحمل ألوانها وتستكمل الرسمَ الذي بدأته على اللوحة منذ عشرين عامًا.
اللوحة لم تتغيّر كثيرًا. الملامح وحدها تتبدّل، وبريقُ العينين في اللوحة يزداد ويخفت أحيانًا، فتضطرّ إلى تغيير نوع الألوان الحادّة.
ظلّت ترسم ملامحَ وجهٍ تراه في الصورة المعلّقة على الجدار. ذلك لأنّ العرّافة قالت لها إنّ الحياة ستدبّ في صورته، وإنّه سيأتي في منتصف الربيع، فيصنع لها عقدًا من النرجس الجبليّ.
منذ ذلك اليوم ظلّت تنتظر أن تصير نبوءةُ العرّافة قصّة حبّ لم تعشها، حتى في زمن الكوليرا وإنفلونزا الخنازير والقنابل العنقودية ودخان المصانع والمبيدات الحشريّة.
لكنّ شيئًا لم يتغيّر، سوى أنها لم تستطع أن تزور العرّافة في العام التالي لأنها وجدتْ بابَ بيتها مغلقًا، وأخبرتها جارةُ العرّافة أنهم دفنوها في مكان قريب. وماتت كلُّ يماماتها البنيّة في آخر الربيع.
عادت إلى البيت.
لم تجد صورته المعلّقة على الجدار، فخشيتْ أنّ أحدًا سرقها أو أبدلها.
أزاحت الستائرَ عن الشبّاك، لترى في المرآة وجهَها الشاحبَ ذاته. تحسّستْ تجاعيدَه التي لم ترها منذ زمن، وأدركتْ أنّ بريقَ عينيها قد انطفأ.
عادت إلى اللوحة التي بدأتْها منذ عشرين عامًا، والتي قالت لها العرّافة إنّ الروح ستدبّ فيها كما دبّت في الصورة المعتمة المعلقة على الجدار. فوجدتْ صورتَها مرسومةً بالأسود، ولون العينين صار شاحبًا أيضًا.

٣ ـ نصيب اللاجئين

في الرحلة الستين، من بحرٍ إلى بحر، ومن خيمةٍ إلى خيمة، صار الوطنُ البعيدُ كالشمس حلمًا يبتعد كلّما اقترب منه أطفالُ المُهجّرين.

حمل اللاجئون مفاتيحَ بيوتهم في رقابهم كمشانقهم، تخنقهم إنْ هم تحرّكوا في غير الاتجاه الذي يؤدّي إلى العودة. ومضوا باتجاه البحر.

لا البحرُ قَبِلَ ابتلاعَهم، ولا نورُ الشمسِ خفّف من مُصابهم بالفقدان. ظلّوا في كهف الهجرة سنين، يحملون أوسمة اللاجئين التي تمنحهم سردينًا وطحينًا.

لم يكن الجوعُ هاجسهم ولا الموت؛ ظلّ الوطنُ وحده هو الهاجس، كما التراب أيضًا.

متفائلٌ منهم قال ذاتَ يوم حكمة اللاجئ الشهيرة: لا تخافوا على الأرض؛ ففيها متّسعٌ لمخيّمات أخرى ستأتي يومًا لتكون مكانكم، أو ربما ستصبحون يومًا مدنًا من إسمنتٍ لا ذاكرة له كالياسمين.

فكما طعامُ الواحد يكفي اثنين، صار القبرُ الواحدُ فيّ المنفى يتسع لمخيمين.

٤ ـ المشهد الأخير

ذات لحظة، كان يُفكّر كثيرًا كيف يرسم له ولها حاضرًا مشتركًا.

كانت تفكّر بالغد ونسيت أن تعيش الحاضر الذي رسمه.

وحين وقفا على مفترق الطريق الذي يسير بهما من الحاضر إلى الغد، قرّرا أن يفترقا.

أصبحَ يسيرُ في كلّ يوم عكسَ طريق العودة، موغلاً في السير قُدُمًا، ويعودُ من جديدٍ ليسير في الطرقات التي كانا يسيران فيها معًا:

يسجّل اللحظات، يكتب عنها قصصًا وحكايات، ويلتقط للذكريات بعض الصور.

أما هي فكانت تجلس مع الرجل الجديد، تستجدي منه كلمات حبٍ وبضعَ عاطفة، وتحكي له عن الوجع والتجارب الفاشلة، وتحدّثه عن المشهد الأخير على مفترق الطرق. ولم تفكر مرةً أن تقول: «عشتُ معه أجمل لحظات ذلك الجزء من العمر»؛ فكلُّ ما علق بذاكرتها كان المشهدَ الأخيرَ فقط.

ما أطولَ طريق اللحظات الجميلة في الذكريات في حياته، وما أقصرَ ذاكرتها التي لم تحتملْ سوى المشهد الأخير!

عمّان